الفصل الرابع عشر

خلود العلم

ومما تقدم نلمس الأسس السليمة التى بنى عليها المصرى فى مجال الطب والعلاج نظرياته معتمدا على الدراسة والتحليل والمراقبة والتجربة الحية الواعية التى لم يسبقه إليها أحد.

واجه البشر، مستوطنو هذه البقعة الحيوية من العالم، أرض مصر، الصعاب الكثيرة لندرة المعلومات المتاحة والسبل اللازمة لمواجهة الحياة، فكان عليه أن يتفكر ويحكم عقله ليحصل على النتائج المرجوة، ليس فقط فى مجال الطب والتطبيب، بل فى جميع المجالات.

ومن منطلق معطيات الطبيعة، كان عليه مراقبة ما يحيطه من مواد وتفاعل البشر مع هذه المواد، لاحظ بدقة شديدة هذه التفاعلات، ومارس بشجاعة تجاربه الحية التى أدت به إلى وضع الأسس العلمية السليمة فى كل من المجال الطبى والعلاجى، ففى مجال التشريح والجراحة، تفوق الإنسان المصرى بفضل ممارسته عملية التحنيط للجسم البشرى والحيوانى، فأرضى فى نفسه الجانب المعرفى بمكونات الجسم غير الظاهرة مما مكنه من معرفة وظائف الأعضاء من القلب، للرئة، للمخ والأحشاء الداخلية كالكبد والبنكرياس والكلى والمثانة والأمعاء...لقد ألم أيضا بالأوعية المختلفة ووظائفها.

وعرف الأعصاب والأوتار، وإن لم يكن يطلق عليها نفس المسميات ولكنه أورد الوصفات اللازمة لعلاج كل أجزاء الجسم ولم يغفل أيا من هذه الأجزاء.

وقد تأكد هذا من خلال البرديات المكتشفة التى هى فى الواقع تمثل جزءا يسيرا من معرفة المصرى القديم فى هذا المجال، فقد علمنا بوجود مجلدات طبية متخصصة فى مجالات الطب المتنوعة.

وتحتوى ما عثر عليه من أجزاء بردية إيبرز وحدها على ما يقرب من ٨٧٧ علاجا دوائيا شاملا للعديد من التخصصات منها الأمراض الباطنية، أمراض العيون، علاجات الأسنان، علاج الجلد من الحروق والحشرات والحكة والجرب وغيره مما يصيب الجلد، لم يغفل الأطراف من أصابع اليدين والقدمين، والعضلات، فوصف المستحضرات لتقويتها والقضاء على الانكماش أو التيبس الذى قد يصيب بعضها، حتى اللسان أوجد له المضمضات اللازمة لعلاج ما يصيبه، ولم يبخل على الأعضاء التناسلية بالعلاج من السيلان أو الالتهاب أو الضعف الجنسى، حتى مزيلات

رائحة العرق أوجدها الطبيب، ولجأ إلى زيوت الأسماك لتنمية الشعر، والمعروف عنها حاليا احتواؤها على فيتامين أ.

عالج الطبيب حالات الصرع، الذى عرف باللغة المصرية القديمة بكلمة نيى، والإسقربوط والإرتشاح والشوكة التى تدخل الجسم ووصف المستحضرات لتحسين الجلد فى الجسم والوجه أيضا. وصف الدهانات اللازمة للروماتيزم الذى يصيب الركبة، والعنق، حتى الشلل الجزئى، عالج الإكزيما والجروح والرضوض حتى إزالة الشيب وتغذية الشعر لم يغفلها الطبيب. وذكر العلاقة بين مرض الكبد والإمساك فى الأمعاء وعلاقته بمرض الصفراء وما يصيب المعدة.

وأوجد الطبيب المستحضرات لشفاء الغدد الصماء لمعالجة حالات الصرع، كما حاول مواجهة الأمراض العقلية، فذكر «عقله مظلم» و «إنه يذوق قلبه»، و «موت الذاكرة والنسيان»، «أما بخصوص ذاكرته تركع».

وأوضحت بردية سميث العلاج الجراحى المتقدم الذى مارسه الطبيب وتحديده للعلاقة بين إصابة المخ وحركة الأطراف وإصابتها الناتجة عن إصابة المخ، لجأ الجراح إلى خياطة الجرح، ولضم أطرافه بالمواد اللاصقة، وعرف الطبيب أن القلب هو مركز تجمع الأوعية الدموية، وتمكن من تحسس النبض الذى يمثل قوة القلب أو ضعفه، وتمكن من عضلات الجسم وأوتارها وأربطتها.

والأدوات الجراحية التى استعملها الطبيب المصرى والمدون بعضها على جدران معبد إدفو. وعثر على البعض الآخر فى منطقة سقارة ومعروضة حاليا بمتحف امحوتب، مازال يستعمل بعضها مثل المشارط والسكين والجفت والدس والملقاط والإبر والمجس والقسطرة وآلة الكى والمقص والمشبك...

كان المصرى أول من خاط الجرح، واستعمل المثقاب النارى فى عمليات الكى لإيقاف النزيف، وحضر الضمادات واللبخات للجروح، والفتيل الكتانى لتضميد الجرح، وأجرى الطبيب عمليات البتر باقتدار، وعالج جرحا غائرا بالرأس: «والآن بعد أن تخيطه يجب عليك أن تضع عليه لحما صابحا فى اليوم الأول». أجرى الطبيب بنجاح عمليات الفتق وتمدد الأوعية الدموية، ولكن الطبيب العالم بقدراته نصح بعدم علاج جراحى لكل من الدوالى والإنفريزما الشريانى الوريدى.

ولجأ الطبيب إلى العسل واللبن لعلاج أمراض الجهاز التنفسى وأمراض الحلق والزور، ومازال العلم يدين لفوائدهما.

أما الأعشاب والمعادن وبعض الأجزاء الحيوانية التى استعملها الطبيب فى تكوين مستحضراته؛ فقد تبين نجاحها فيما استهدفت له، ومازالت هذه المكونات تستحضر بعضها أو معظمها ولكن باللجوء إلى المستخلصات الكيماوية الحديثة التى لا يمكن أن تضاهى المواد الطبيعية ولكن تقاربها فى المفعول.

وكان الطبيب يجرى عمليات التربنة لتخفيف الضغط عن المخ، ومازالت تمارس هذه العمليات.

أمـا الخميرة، فهى من المكونـات الهامة التى وصفها الطبيب فى الجـروح والقروح ولعلاج التلبك المعدى والمعوى، كما عالج العشـى الليلى بكبد الثور المشوى، وهذا ما يجرى حاليا إذ إن مستخلص الكبد الغنى بفيتامين أ يصنع كدواء لعلاج حالات الكتراكت أو المياه البيضاء.

ووضع الطبيب الأسـس العلاجية السليمة التى مازالت تمارس إلى يومنا هذا فى مجال علاج الأسنان من خلع وحشو وتركيبات الأسنان التعويضية وعلاج اللثة وتقيحاتها.

وتمـارس العنايـة الصحيـة بصفة دورية من خـلال المعابد المتخصصة فى العلاج والمكرسـة لسخمت والتى يقصدها الأفراد لتناول الشربة بصفة دورية ولعمل الحقنة الشرجية لتطهير الجوف كنوع من الطب الوقائى.

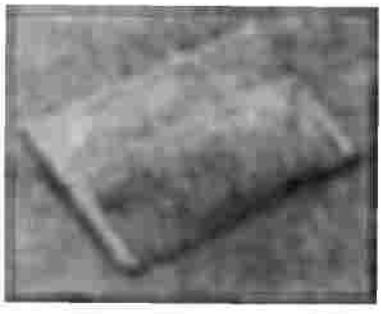

أحد الأمشاط المستخدمة لتصفيف الشعر

و كان الطـب الوقائى متبعا لتفادى الكثير من الآثار المدمرة على صحة الإنسـان، ويقتضى التطهر بالماء وملح النطرون، والحفاظ على نظافة الجسد والملبس بالاستحمام والتطيب بالأعشـاب العطريـة، كذلك الامتناع عن أكل كل ما هـو ضار بالصحة العامـة والمداومة على تنظيف المعدة باللجوء إلى المسهلات ومنظفات الجوف مثل زيت الخروع وبلسم التفاح وفصوص الثوم التى كانت تستعمل فى أغراض متنوعة.

ولم تقتصر الوقاية على الجسـم البشـرى فقط، بل امتدت إلى المنزل لمحاربة الحشـرات مثل البراغيـث والذباب والفئران والعقارب والثعابين، وورد فى بردية إيبرز بعض الوصفات للقضاء على هذه الحشـرات وعلاج لدغات بعضها، كما وردت وصفة لقتل العقرب، أما القمل الذى قد يصيب الشعر أحيانا فأوجدت الفلايات لتنقية الشعر والقضاء عليه.

اهتـم المصرى بمعظـم التفاصيل المتصلة بالصحـة العامة وأوجد لكل عـرض علاجه ووضع منهجيـة سـليمة فى تحديـد أنواع المرض المختلفة وكيفية تشـخيصها من خـلال فحص دقيق لأعراض المرض. ووضع الطبيب الخطوات الجادة نحو فحص سليم، اهتم بأعراض المرض وتتبع تطوراته، واسـتحضر الدواء الشـافى فى أغلب الأحيان، وأعلن عـن محدودية علمه فى أحيان أخرى ولكن لم يتخل أبدا عن مريضه» اذهب إليه ولا تتركه»، «لازمه ولا تتركه».

وكتـب ديـودور الصقلى: «يتم علاج المريض طبقـا لما هو مدون وموروث عـن القدماء، فإذا حـدث، بالرغـم من اتباع ما هو مكتوب فى الكتب المبجلـة، أن توفى المريض، فالأطباء لا غبار عليهم ولا لوم. أما إذا تصرفوا بخلاف ما هو مكتوب، فيمكن اتهامهم والحكم عليهم بالموت».

يظهر المشـــرع من هذا التشريع جدية ممارســة مهنة الطب والمسؤلية الجسيمة التى يتحملها الطبيب الممارس، فهو بخلاف مسؤليته عن حياة المريض وشفائه، ملزم باحترام فكر وممارسات الأجداد الطبية ولا يحيد عنها.

وكانت ممارسات الأجداد تشمل أيضا خلال العصور المختلفة بعضا من الموروثات التى تهدف كذلــك للشــفاء منها هذه التماثيــل التى تحاط بتعاويذ وأوراد الغرض الأساســى منها هو تحقيق ما يعجز عنه الطب أحيانا. ويتلخص السحر فى هذه الكلمات التى نطقتها إيزيس بعد أن داوت رع من سم الثعبان طبقا للأسطورة: «أنا إيزيس مالكة السحر التى تخرج السم من الجسم وتسقطه على الأرض.

«لقد استخلصت من رع اسمه السرى، وسيبقى رع حيا، أما السم فيموت لأنه إذا عاش السم مات رع». وتناولت الجموع هذه الكلمات واعتبرتها رقية للوقاية ولاستجلاب الشفاء.

وطبقا لفلافيوس كليمنس، أحد مؤســـى مذهب من المذاهب المسيحية فى الإسكندرية، فإن الكهنــة المصريين القدماء قاموا بتجميع المعلومات الطبية المختلفة فى ٢٢ مجلدا واحتوت ســتة كتب على علوم التشــريح والجراحة والطب النســائى والأدوية وخلافه فيما عرف بكتب هرميس التى ذكرها جاليان ولم يعثر على أى أثر لها فيما بعد.

انتقلت إذا خلاصة معرفة المصرى الطبية إلى اليونان عن طريق الإســكندرية ومنها إلى العالم الخارجى، ومازالت مؤثرات هذا العلم مؤكدة فى مجالات متعددة كما تم الإشارة إليه مسبقا.

وتبقى كلمات إيزيس لتغلف هذه الحضارة: «أيها العائد إلى الحياة، هيا، عد إلينا فى سلام يا أخى! عد لأراك يا ملك الوجه البحرى! يا حاكم الزمن اللانهائى! ليت قلبك لا يكون متعبا! هيــا عد إلى منزلك بلا خــوف... كن خالدا! كن خالدا! خالد هو اسمك، وأعضاؤك هى لك من جديد. فليكن حيا ومزدهرا وفى صحة طيبة... «يا أوزوريس إن كل ما تتفوه به كامل».

وانطلاقــا مــن مبدأ الخلود الذى آمن به المصرى منذ القدم، حقــق العلم هذا الخلود، فظلت الممارســات الطبية قائمة يطورها البشــر وتعم الفائدة العلمية على الســلالة البشرية التى طورت دراســات وبحوث الطبيب المصــرى الرائد فى هذا المجال مســتخدما لتقنيات وأدوات محدودة مقارنــة بمــا هو متــاح حديثا. ولكن الأمــل معقود على مزيــد من الدراســات للنواحى المختلفة مــن الطــب المصرى وتوثيقها والإفادة منها ليس فقط على المســتوى المحلى، بل على المســتوى الإنسانى العالمى.

❑❑❑

المراجع

أولا: المراجع العربية:

١ – الطب المصرى القديم، د.حسن كمال، ١٩٩٨.

٢ – بسيونى، الفراعنة والطب الحديث. دار المعارف.

٣ – معجم أسماء النبات، أحمد بك عيسى.

٤ – تاريخ وحضارة مصر القديمة، أ.د. عبد الحليم نور الدين.

٥ – موسوعة مصر القديمة، سليم حسن.

٦ – نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة ترجمة ماهر جويجلتى عن الترجمة الفرنسية لكلير لالويت.

٧ – عبد الرحمن الطب والصيدلة والكيمياء فى مصر القديمة، ١٩٣٩.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1 - Immunomodulation Through Castor Oil Packs, Harvey Grady The Journal Of Naturopathic Medicine, Volume 7. Number

2 - The Edgar Cayce Handbook For Health Through Drugless Therapy By Dr. Harold J. Reilly And Ruth Hagy Brod A.r.e. Press. Virginia Beach, Va, Usa.

3 - TAKE CHARGE OF YOUR BODY - Women's Health Advisor by Dr. Carolyn DeMarco. The Well Women Press Winlaw, BC

4 - WISE WOMAN HERBAL FOR THE CHILDBEARING YEAR by Susun S. Weed Ash Tree Publishing Woodstock, New York, USA

5 - AVALON J., Imhotep. l'Esculape des Egyptiens. Aesculape, Paris, 1927

6 - Bardis, P., «Circumcision In Ancient Egypt», In Indian Journal History Of Medicine, 12. No1, 221967 ,23-.

7 - Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus

8 - Medicine in Ancient Egypt, Dr.Sameh Arab.

9 - LECA, A.P., La Médecine égyptienne au temps des pharaons, Paris, 1983.

10 - Lefebvre, G., Essai Sur La Médecine Égyptienne De L'époque Pharaonique, Paris, 1956.

11 - EBEID N. I., Egyptian Medicine in the Days of the Pharaohs, Cairo, 1999

12 - GHALIOUNGUI, Paul, Health and Healing in Ancient Egypt, Cairo, 1965.

13 - GHALIOUNGUI Paul, The Physicians of Pharaonic Egypt, Cairo, 1983.

14 - KAMAL, Hassan, Ancient Egyptian Medicine, 2nd ed., Cairo, 1964 (in four volumes in Arabic)